

تأملات في مسألة الحجاب (1-3)

معركة الحجاب بين عصريين

مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين بدأت معركة الحجاب في مصر بين طرفين يرى أولهما أن خير ما يمكن أن ترقى به المرأة المسلمة هو أن تقلد المرأة الأوروبية في سفورها واختلاطها بالرجال في كل مناحي الحياة، بينما يرى الطرف الآخر أن هذه الدعوة ما هي إلا مروق من الدين ومحاولة لإفساد المجتمع المسلم عن طريق إفساد المرأة ونشر الأفكار الدخيلة في ديار المسلمين .

ومنذ ذلك الحين وإلى الآن لم تنته معركة الحجاب، إلا أن نارها كانت تحبو حيناً وتقوى حيناً بحسب الظروف والملابسات والأحوال .

والآن ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين تعود قضية الحجاب لتفرض نفسها بقوة على الساحة في مصر وفي كثير من بلاد المسلمين، بل وغير بلاد المسلمين لنرى أنفسنا أمام متغيرين مهمين بين طبيعة معركة الحجاب قبل مئة عام وطبيعتها الآن :

أما المتغير الأول : فهو في طريقي المعركة فإن الملاحظ أن دعاة السفور في المعركة الأولى كان أكثرهم من الأجيال المتعلمة الشابة وخصوصاً ممن تعلموا في أوروبا والذين كان ينظر إليهم على أنهم أهل الفكر ودعاة التنوير، بينما كان دعاة الحجاب في مجملهم من كبار السن أو من ذوي الثقافة الأزهرية الذين كان الاستعمار يعمل هو وأعوانه على إظهارهم بصورة الجامدين المتخلفين الذين لا يسايرون روح العصر، كما أن النساء اللاتي كن يظهرن سافرات هن المثقفات المتعلمات أما المتمسكات بالحجاب فكن في عامتهن من الأميات الجاهلات، بحيث صار من المظاهر المألوفة كما يقرر الأستاذ محمد قطب أن ترى الأمهات محجبات والبنات سافرات [واقعنا المعاصر ص : 246]، أما في الوضع الحالي فإننا نلمس بحمد الله تعالى ما يشبه أن يكون انقلاباً في طبيعة طريقي المعركة فبينما نرى أن أكثر المحاربيين للحجاب هم من الجيل الذاهب كنوال السعداوي ومن على شاكلتها فإن كثيراً من دعاة الحجاب هم من الأجيال الشابة المتعلمة، كما نرى أكثرية الفتيات المحجبات هن الجامعيات المثقفات، بحيث صرنا نرى عكس ما كان يشير إليه الأستاذ محمد قطب أي نرى الأم مترجة والبنات محجبة بل رأينا كثيراً من البنات كن السبب في تحجب

أمهاتهن وإقناعهن بترك التبرح والسفور ، كما نرى فكرة الحجاب قد وصلت إلى أوساط لم يكن دعاة السفور يتخيلون وصولها إليها وذلك مثل أوساط أهل الفن والإعلام ونحوها. **وأما المتغير الثاني :** فيكمن في كون معركة الحجاب كانت في ذلك الزمان بمثابة غزو غربي لثقافة المسلمين وموروثاتهم ، بحيث كان دعاة الحجاب في موقف المدافع الذي كان كثيراً ما يشعر بأنه يخوض معركة خاسرة يكسب فيها خصمه كل يوم أرضاً جديدة بينما يخسر هو مواقع كانت له ، أما في واقعنا الحالي فمن الملاحظ أن خصوم الحجاب هم الذين يصرخون كل يوم معربين عن قلقهم من انتشار ظاهرة الحجاب في المدارس والجامعات وغيرها .

انظر معي على سبيل المثال إلى ما كتبه الصحافي عبد الله كمال مؤخراً في مقال له بروزا ليوسف متباكياً على ما دعاه ضياع جهود دعاة التنوير قائلاً : ((من الواجب على نخبة هذا البلد أن تشعر بالحجل ، إن لم يكن الخزي الكامل الذي يرقى لمستوى العار وهي ترى أن جهد التنوير في المجتمع يتراجع ويتدهور ويتخلى أصحابه عن أدوارهم إما تكاسلاً أو خوفاً أو انتهازية ، فيما التطرف يواصل تقدمه بانتظام واطّراد ، ويحقق كل يوم مكسباً جديداً ويقذف بالمواصفات الليبرالية لمجتمع عصري في جب عميق قبل أن يشرع في دفنها ويقول : قضى الأمر))

أما أهم مظاهر هذا التقدم الذي يحققه التطرف في نظر الكاتب فهو أمران أولهما : الارتفاع الملحوظ في معدلات ارتداء قطاعات واسعة من النساء للنقاب ، والثاني : الازدياد المطرد بلا توقف في اتجاه تحجيب الأطفال الإناث اللاتي لم يبلغن بعد خاصة في الريف كما ذكر في مقالته المشار إليها .

ويقول معلقاً على الجدل الذي دار مؤخراً حول فرضية النقاب : ((ذلك أن مناقشة النقاب الآن تعني أن التطرف الديني نجح في أن ينقل المجتمع عدة مربعات إلى الخلف ؛ إذ بعد أن كنا نناقش منذ سنوات موضوع الحجاب ، ونقول إنه ليس فرضاً صار علينا الآن أن نقبل بالجدل في ميدان اختاره التطرف وهو ميدان النقاب ، وكأن الحجاب نفسه صار مسلماً به وأمرأ مفروغاً منه)).

ولا شك أن مسلك هذا الكاتب وأمثاله دليل قوي على ما سبقت الإشارة إليه من أن دعاة السفور قد صاروا في موقع الدفاع بعد أن كانوا في موقع الهجوم بحيث صار الحجاب يكسب في كل يوم نصيرات وأنصاراً، وهو ما يفسر هذا الفرع الشديد من قبل خصوم الحجاب .

وها نحن في ديار الغرب التي وفد السفور إلينا منها أول مرة نرى الحجاب الإسلامي يفرض نفسه بقوة ويتقدم في ثبات وثقة، بينما كان زعماء الغرب وقادة الرأي فيه يراهنون من قبل على ذوبان أبناء المسلمين المهاجرين إلى بلاد الغرب في مجتمعاتهم الجديدة وانسلاخهم من هويتهم الإسلامية، حتى إن بابا الفاتيكان السابق حين أبدى له البعض قلقهم من تزايد أعداد المسلمين المقيمين في بلاد الغرب فإنه سأهم : لمن سيكون أبناءهم؟ قالوا له : لنا بكل تأكيد، فرد عليهم قائلاً : إذن فلم الخوف والقلق؛ فالمهم هم هؤلاء القادمون لا الآباء الذاهبون .

لكن الرياح أتت في العقود الأخيرة بما لم يكن يشتهي البابا وأمثاله؛ إذ فوجئ القوم بتزايد نسبة المتدينين من أبناء المسلمين بحيث صار من المؤلف أن نرى فتيات محجبات يخرجن من أسر ربما كانت لا تعرف كيف تؤدي الصلاة، وفي كل يوم تمر بنا حالات من هذا القبيل، ومن قبيل أن يأتي شاب من إحدى البلاد الإسلامية للدراسة أو الإقامة في بلد أوروبي وهو لا يصلي ولا يعرف شيئاً عن الدين الذي ينتمي إليه فما يلبث إلا قليلاً حتى يكون من أهل الدين ورواد المساجد، بل تمر بنا حالات عديدة لفتيات ألمانيات اعتنقن الإسلام على غير رغبة أهلهن وارتدين الحجاب وصرن أكثراً تمسكاً به ربما من أخواتهن المسلمات اللاتي كن سبباً بعد الله تعالى في اهتدائهن للإسلام .

ولست أريد بهذا أن أرسم صورة وردية لواقع المسلمين في الغرب، فالتحديات خطيرة والحرب على الحجاب وغيره من مظاهر الإسلام قائمة على قدم وساق، ومخاطر انحراف أبناء المسلمين لا تزال تمثلهماً كبيراً يؤرق أهل الدين من الآباء والأمهات، وإنما أردت أن أقول إنه إذا كانت معركة الحجاب قد بدأت في بلادنا بدعوة للسفور تولى كبرها أناس تعلموا في الغرب ورضعوا من لبنه، فإن المعركة الآن قد انتقلت إلى أرض

الغرب نفسه، وصار الحجاب الإسلامي هو الذي يغزوهم في عقر دارهم بعد أن كان سفورهم يغزو المسلمين في بلادهم .

ولعل ذلك يسهم إلى حد كبير في تفسير قلق القوم المتزايد من انتشار المد الإسلامي في بلادهم، حتى أقدمت بعض تلك البلاد على إصدار قوانين تخالف الأسس التي قامت عليها حضارتهم في مجال الحريات واحترام حقوق الإنسان كالذي فعلته فرنسا حين حظرت الحجاب في مدارسها، كما أنه لا شك أن كثيراً من ما نسمعه من تصريحات قادتهم ضد الإسلام والمسلمين (كتصريحات بابا الفاتيكان الأخيرة) راجع في جانب منه إلى شعورهم بأن الإسلام - والحجاب من أهم مظاهره - عاد يطرُق أبوابهم، بل ويطأ أرضهم، ويكسب في كل يوم مساحات جديدة ما كانوا يحسبون حسابها .
(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

عبد الآخر حماد

للموضوع صلة